

مولده وتعليمه عاش الطاف حسين حالي في فترة عصيبة من تاريخ شبه القارة الهندية التي شهدت خفوت آخر ضوء للدولة المغولية في الهند بعد حكم استمر عدة قرون، وبعد أن لفظت تلك الدولة آخر أنفاسها بفشل ثورة التحرير عام ١٨٥٧م، وبسطة نفوذها السياسي على شبه القارة التي أدخلتها ضمن مستعمراتها عام الباب الثالث. الطاف حسين حالي (١٨٣٧-١٩١٤م) الفصل الأول ١٨٥٨م. ويساعدنا حالي نفسه في التعرف على جوانب حياته المختلفة التي كتب عنها بطريقة محددة ومرتبطة، فقد ولد بمدينة پاني پت عام ١٢٥٣ هـ / ١٨٣٧م)، وقد كان اجداده من الأسر العريقة أصحاب الأملاك، فمن سلسلة أسرته خواجه ملك على العالم الكبير المشهور الذي نزع من هرات إلى الهند في عهد غياث الدين بلبن، وكانت له أملاك كثيرة بالقرب من پاني پت التي كان قاضيا عليها، وكان يوفد من قبل الملك الإقامة الصلاة في الأعياد، أما والد حالي خواجه ايزد بخش فقد قضى حياته في ضيق وعوز بعد ضياع أملاكهم، تلقى حالي تعليمه بالأسلوب القديم، فقد حفظ القرآن أولا، ثم بدأ في تعلم اللغة العربية وقواعدها على حاجي إبراهيم حسين الأنصاري، ولما كان حالي مولعا بالإطلاع والدرس، وذهب إلى مدينة دلهي. وأقام بها ما يقرب من عام ونصف، ودرس فيها بعض كتب النحو والصرف والعروض في اللغة العربية، ودرس المنطق وغيره على فواز شاه على العالم المشهور، والواعظ الكبير في تلك الفترة (٢)، وفي عام ١٨٥٥م رجع إلى پاني پت وظل بها عاما، فاضطر إلى الرجوع لبلدته ثانية، وظل بها ما يقرب من أربع سنوات قضاها في الدرس والإطلاع)، كما أطلع على كتب الأدب مستعينا بالقواميس والشروح مما أضاف إلى فكره وثقافته الكثير ("). وظائفه وقد اضطر إلى تلك الوظيفة، ورجع إلى مدينة پاني پت بعد اندلاع الثورة، وقد ظل بتلك المدينة أربع سنوات دون عمل، نظرا للظروف الاقتصادية المتدهورة، والآثار السيئة التي ترتبت على فشل الثورة، ثم عمل مربيا للأولاد عند الشاعر الكبير نواب مصطفى خان شيفته لمدة ثماني سنوات في جهانگیر آباد بعد مقابلته له، وفي عام ١٨٧٢ ذهب حالي إلى لاهور فعمل في "گورنمنٹ بک دبو" "مخزن كتب الحكومة" مصصحا للكتب المترجمة من الإنجليزية إلى الأردية لمدة أربع سنوات تعرف خلالها على الأدب الإنجليزي. وفي عام ١٨٨٧م عمل حالي في بورڈ نگ هاوس میں طلبه کی اتالیق مربيا في المدينة الجامعية بكلية إيجسن بلاهور، واستمر في هذه الوظيفة ثمانية أشهر فقط رجع بعدها إلى العمل في المدرسة الإنجليزية العربية بدلهي بمرتب ضئيل، حتى تقابل مع سر آسمان جاه بهادر" في على گڑھ عام ١٨٨٧م الذي عينه بمرتب كبير في حيدر آباد حيث ظل بها إلى عام ١٨٨٩م، ثم طلب الاستقالة من وظيفته القديمة، وعاد إلى پاني پت ليقضى بقية حياته في التأليف والتصنيف، وقد ارتبط حالي بالطبقة المتوسطة وبأخلاقها وبطابعها الذي اتسم بالكفاح إلى جانب البساطة والمودة والإخلاص والتراحم، حتى أصبحت تلك الصفات جزءا من شخصية حالي، كما كانت مفتاح شخصيته وفنه أيضا (١). فقد كان حالي على خلق حميد وحياء شديد، بل كان قلبه مفعما بالمشاعر الطيبة، وطموحات واسعة من أجل قومه. وقد جمع حالي بين كثير من الصفات والمهارات فقد كان شاعرا كبيرا وناشرا وأديبا عظيما، وكاتبا للتراجم وسير الحياة وبعض المقالات الأدبية الجيدة (٢)، علاوة على نشاطه في المجتمع الهندي خاصة بعد لقائه بسر سيد احمد خان في دلهي ثم في على گڑھ، لذا كان من أوائل المعاونين لسر سيد في هذه الحركة، كما زار العديد من مدن الهند. الذي شعره المرحلة الأولى : فن الغزل بدأ حالي حياته الشعرية في دلهي، وقد تتلمذ على الشاعر الكبير مرزا غالب الذي سُرَّ باستعداد حالي لأن يكون شاعرا، لكن حالي لم يبق في دلهي سوى عام ونصف. أما صلته باستاذة قلم تنقطع (٣)، إذ كان يرسل إليه غزلياته لإصلاحها. وكان لصحبته له ثماني سنوات أثر كبير في شاعريته، ونضج موهبته الأدبية (٤)، إذ تخلص من جانب من الأسلوب القديم للشعر الذي اتسم بالمبالغة والتكلف فكتب مولود شريف ذات الصبغة الدينية التي تتميز بحمية العقيدة. وفي عام ١٨٦٥م نظم حالي قصيدة مدحية بالأسلوب التقليدي، وأرسلها إلى مرزا غالب الذي كان تأثيره فيها واضحا على أسلوب حالي، إلى جانب تأثير أسلوب شيفته عليه في تلك الفترة وهكذا تعلم حالي من مرزا غالب رقة الخيال وحسن الأداء كما تعلم من شيفته التعبير عن العواطف، وبساطة اللغة وصفائها، حالي أنا المستفيد من شيفته في قرض الشعر إنني تلميذ مرزا (غالب) وأنا أقلد مير أما غزليات حالي في هذه الفترة فيتضح فيها أثر غالب وشيفته. وفي عام ١٨٦٩م توفي مرزا غالب فكتب حالي "مرثية" غالب" في شكل تركيب بند، ثم توفي مصطفى خان شيفته في نفس العام، فانتهت تلك الفترة التي كان متأثرا فيها بهذين الأستاذين الكبيرين، وكانت صلته فيها بالدين قوية، كما اتضح من أشعاره التي عبر فيها عن عواطفه ومشاعره الدينية، وعن حبه للرسول صلى الله عليه وسلم وتعلقه به). لكنه لم يترك ذلك المرحلة الثانية : الشعر الحديث وقد استفاد في هذه المرحلة الشعرية من إقامته في لاهور حيث اكتسب خبرة علمية وعملية عميقة، وكون رأيا خاصا به في سياسة البلاد، وقد ساعده عمله في الترجمات كما أشرنا في الإطلاع الجيد على الأدب الإنجليزي بما اتسم به من البساطة والصفاء، وقد أدى ذلك إلى شعور حالي بتدهور الأدب الشرقي وعدم ملائمته لظروف العصر ومتغيراته، وقد تمنى حالي أن يتطور الشعر الأردی

بحيث يواكب العصر، ويتخلص من جموده وتعقيده بحيث يكون بسيطاً صافياً واقعياً (٣). وتعد هذه المرحلة في شعر حالي هي المرحلة التي عبر فيها عن إشفاقه لسوء حال قومه، وتدهور أحوالهم، وقد تأثر بالحركة الإصلاحية لسرسيد احمد خان من ناحية، كما تأثر بالأدب الإنجليزي، ورأى أن الشعر التقليدي لا يفيد في هذا الميدان بقدر ما يفيد الشعر الجديد الذي ينبه قومه ويحثهم على النهضة، يأخذ بأيديهم إلى الطريق القويم للحياة)، وفي ذلك يقول: فلماذا تغنى أغنية لا تناسب العصر لقد مضت أيام قرض الغزل يا حالي ومن هذا المنطلق اختار حالي لنفسه أسلوباً مختلفاً في الأدب بعد أن ترك نظم الغزل بالأسلوب التقليدي القديم، وجعل الشعر القومي والملى والإصلاحي والأخلاقي ميدان عمله الأساسي. وكانت البداية أثناء إقامته بـلاهور حيث أسس محمد حسين آزاد "انجمن پنجاب" "جمعية البنجاب" عام ١٨٧٤م بـلاهور تحت إشراف الجنرال هالرايد رئيس مكتب تعليم البنجاب، وقد كانت تلك الجمعية تعقد مجالس شعرية من نوع جديد قائم على الموضوعات المختلفة عن النظام الكلاسيكي الواحد للشعر الأردى القديم. وكان هدف هذه الجمعية تطوير الشعر بحيث يستوعب متغيرات العصر، لم يكن حالي من مؤسسى الجمعية، وقد ساهم بدور فعال في جلساتها، وشارك بأربع منظومات هي: بركهارت "المطر" و "نشاط اميد" و "نشاط الأمل" و "مناظرات رحم وإنصاف" مناظرة بين الرحمة والإنصاف "حب" "وطن" "حب" "الوطن" وقد قرئت هذه القصائد ترك حالي لاهور بعد انتهاء عمله بها، وذهب إلى دهلى عام ١٨٧٥م، وهناك قام بعدد من الأعمال الهامة منها الكتابة في مجلة "تهذيب الأخلاق" التي كان يصدرها سرسيد احمد خان إضافة إلى كتابته في مجلة "المعهد العلمي" بعلى كژه. وفي نفس العام كتب شعراً بعنوان "مباركباد" بمناسبة عيد ميلاد الملكة فيكتوريا وافتتاح مدرسة العلوم بعلى كره، وأرسل هذا الشعر إلى سرسيد هذا الشعر الذي يعده غلام وفي تلك الفترة كان سرسيد يعمل جاهداً على إيقاظ المسلمين من سباتهم، وعلى إصلاح أحوالهم، وعندما رأى فى حالى الاستعداد والهمة في العمل على نهوض قومه طلب منه أن يكتب شعراً فى تدهور المسلمين آنذاك (4) فكتب حالى مسدسه المعروف بـ مد وجزر الإسلام" ونشره عام ١٨٧٩م، والذي بدأ منه الشعر القومي في الأردية. وقد اشتهر هذا المسدس بين الناس ولاقى قبولا كبيراً، وردد الناس أشعاره منذ طبعته الأولى، ولم ينجح أحد في هذا الفن مثلما نجح حالى الذي بدأت شهرته بسبب أشعار هذا المسدس باعتباره شاعراً قومياً). وفي هذه الفترة أصبح حالى أكثر اتزاناً، وبدا الناس يشهدون بجدارته العلمية، وقد قام حالى بعدد من الأعمال العلمية، وأدى بعض الخدمات القومية أثناء إقامته بدلهي في مجالات مختلفة دينية وفكرية وسياسية وغيرها عن طريق أشعاره، هذا إلى جانب الموضوعات النثرية الهامة. وعندما ذهب حالى إلى على كره لأول مرة وشاهد مدرسة العلوم ومبانيها وإدارتها والمسؤولين عنها كتب عنها بالتفصيل عندما رجع إلى دهلى وبعد كتابة حالى للمسدس بدأ يكتب في الجوانب المتنوعة للحياة القومية علمية وتعليمية واقتصادية واجتماعية بأسلوب خاص يفيض عمقا في المشاعر واتساعا في النظر وإحساسا بالحزن والألم لما آلت إليه أحوال بلاده (٢). وهكذا يتضح أن حالى لم يكتب الأدب للأدب فقط، وإنما كتبه بهدف إصلاحي فقد سيطرت العاطفة القومية على أعماله كما رأيناه بوضوح في قصيدة تعصب وإنصاف" في شكل المثنوى، وكذلك مثنوى راست گوئى و مناظر واعظ و شاعر". كما كتب حالى بعض المنظومات منها مراثية في فساد دهلي و خرابها، ومراثية حكيم محمود خان صاحب التي رسم فيها صورة التناقض بين عظمة المسلمين في الماضي، فقد اشتهر كذلك بأنه خطيب له ألفاظه القوية المؤثرة التي خاطب بها المسلمين لينبهم ويشحذ همهم ليتحرروا مما وقعوا فيه من ذل وهوان، وقد ساهم حالى بشعره في الكثير من المناسبات والأحداث القومية في البلاد، وهكذا يتضح لنا مدى التطور الفكرى والعقلى من خلال كتاباته ومؤلفاته أولاً: المثنويات وتضم "مناظره تعصب وإنصاف" و "رحم وإنصاف" و "بركهارت" و "نشاط اميد" و "حب وطن". ثانياً: مسدس "مد وجزر إسلام" ثالثاً: شكوه هند رابعاً: كلياته وتضم الجزء الأول والثانى، وقد نُشر فيها ديوانه مع مقدمة شعر وشاعرى. اليهودي: مناجات بيو و شيب. ويضم منظومات أردية متفرقة. ثامناً: مجموعة نظم فارسي، كتب حالى فى كل فنون الشعر الأردى وأشكاله من الغزل والقصيدة والرباعي والقطعة والنظم الشعر الحديث). وقد تناول في شعره كثيراً من الموضوعات كالأخلاق والنصيحة وشعر الأطفال وشعر المرأة والموضوعات القومية والمليمة، ولقد انقسم فن الغزل إلى ثلاث مراحل: المرحلة الأولى: من عام ١٨٦٣م، وحتى عام ١٨٧٤م، المرحلة الثانية: من عام ١٨٧٤م وحتى عام ١٨٩٣م،